بصمات استشراقية مقارنة في اللغة العربية.

أ.د. عبد الجليل مرتاض

جامعة تلمسان.

استسمح الملتقى أن أعطيه مثالا على إحدى المسائل اللغوية التي لا تفتأ معقدة وشائكة في قواعد اللغة العربية، وأعني بها هنا صيغة أو بنية الفعل المجرد الرباعي وعلاقة كل هذا بما هو زائد على ثلاثة أصوات.

هذه المسألة آثارها الخليل بن أحمد، وأطلق على كل ما كان حرفا عجزه مثل حرفي صدره كـــ: صلصل، وزلزل، وسلسل بالمضاعف، وهذا لأن فيه مدّا، بينما في البناء المضاعف أو المفكك يوجد تخفيف، ويطلق عليه الخليل مصطلح "ترجيع"[1]. وعبقرية الخليل لا تكمن هنا، بل فيما صرّح به لأنه لا توجد كلمة عربية رباعية أو خماسية معراة من حرف واحد أو حرفين أو أكثر من حروف الذلق أو الشفوية (ر، ل، ن، ف، ب، م)[2].

وبعد الخليل بقليل ذكر أبو زيد الأنصاري (215هـــ) أن فعلا مثل: كعكعت أصله: كعّعْت، لكن العرب استقلت هذا البناء من ثلاثة أحرف من جنس واحد، وفرقت بينهما بحرف مكرر وكعكع مثله كفكف[3]. وقد تبنى فكرة أبي زيد مجموعة من العلماء العرب الذي جاءوا بعده، منهم الجوهري (393هـــ) صاحب الصحاح الذي قال: "وخبْخبُوا عنهم من الظهيرة، أي أبْردوا، وأصله: خبّبُوا بثلاث باءات أبدلوا من الباء الوسطى خاء للفرق بين فعْلل وفعّل، وإنما زادوا الخاء بين سائر الحروف أن في الكلمة خاء، وهذه علة جميع ما يشبهه من الكلمات"[4] وابن جني المعاصر للجوهري يرفض أن يكون الحرف الأوسط بدلاً، لأن البدل يكون فيما تدانت مخارجه، ولذا فإن فعلا مثل: حثحث

أصله رباعي، وفعلاً آخر مثل: حثّث أصله ثلاثي، وليس واحد منهما من لفظ صاحبه، والأول من مضاعف الأربعة، والثاني من مضاعف الثلاثة.

وينبري ابن فارس برأي فصل في هذه المسألة ليقرر أن كل ما زاد على ثلاثة أحرف في كلام العرب أكثره منحوت من كلمتين[5] ويظل الأمر سائداً بين أخذ ورد في هذه الإشكالية إلى غاية التفات المستشرقين إلى الدرس اللغوي المقارن للساميات وفقهها وعلومها، ومنهم جيزنيوس (1842) الحجة في العبرية[6]. الذي وافقت أفكاره ما قاله ابن فارس بشأن ظاهرة النحت فيما زاد على ثلاثة أحرف، بل وافقت فكرة الخليل، لأن جيزنيوس رأى أن الجذور ذات الصوامت الأربع، في الأفعال، والخمس في حالة الأسماء، نشأت:

بإضافة صامت رابع، هو الراء أو اللام بين الصامتين الأول والثاني للجذر الثلاثي، أو بإضافة اللام أو النون إلى نهاية الجذر الثلاثي. "وفكرة جيزنيوس هذه تماثل ما قال به ابن فارس (395هـ) من قبل عن النحت في اللغة العربية"[7].

وإذا كان المستشرق الألماني جيزنيوس توصل إلى ما كان قد توصل إلى نفس الفكرة تقريباً ابن فارس، فإن المستشرق الإنجليزي وليام رايت (1898) الذي نشر ولأول مرة في العالم، كتاب الكامل للمبرد، ألمع في كتابه عن النحو العربي الذي لا يزال في طليعة كتب النحو التي تقبل عليها البلاد الناطقة بالإنجليزية[8] إلى أنماط الرباعي، بأنه يتشكل في اللغة العربية حسب الطرق التالية[9]:

1- بمضاعفة جذر ثنائي دالّ على المحاكاة الصوتية أو الحركة، وهذه المضاعفة فيه لا تدل على تكرار ذلك الصوت أو تلك الحركة مثل: بأبأ، ووسوس، وهذه الطريقة قال بها الخليل: "وأما الحكاية المضاعفة فإنها بمنزلة الصلصة والزلزلة، فهم يتوهمون في حس الحركة ما يتوهمون في جرس الحكاية نفسها...والمضاعف...ينسب إلى الثنائي لأنه يضاعفه، ألا ترى الحكاية أن

الحاكي يحكي صلصلة اللجام، فيقول: صلصل اللجام، وإن شاء قال: صَلْ مخففة مرة اكتفاء بها، وإن شاء أعادها مرتين أو أكثر من ذلك، فيقول: صل صل صل يتكلف من ذلك ما بدا له"[10].

2- بإضافة صوت إلى ما كان ثلاثياً، ورأى "رايت" أن هذا الصوت عادة ما يكون مما أسماه الخليل بن أحمد بالحروف الذليقة أو الشفوية مثل اللام والنون، والراء، لكن "رايت" زاد: أو من الحروف الأصلية (س، ص، ز) وهذه الإضافة قد تكون في صدر الفعل أو وسطه أو آخره مثل: شمعل وزحلف وشمخر،... في: شمع وزحف، وشمخ،... غير أن الخليل عبر عن نفس فكرة وليام رايت بتعبيره الخليلي الخاص "فإذا اجتمعا -يعني العين والقاف- أو أحدهما في بناء حسن البناء لنصاعتهما، فإن كان البناء اسماً لزمته السين أو الدال مع لزوم العين أو القاف؟ لأن الدال لانت عن صلابة الطاء وكزازتها وارتفعت عن خفوت التاء، فحسنت وصارت حال السين بين مخرج الصاد والزاي كذلك، فمهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من الحروف الذلق والشفوية فإنه لا يعرى من أحد حرفي الطلاقة أو كليهما[11]، ومن السين والدال أو أحدهما"[12].

3- اشتقاق أفعال من صيغ اسمية مكونة من أكثر من ثلاثة أحرف مثل تمنطق، وتمذهب، وتمدرع وتمعدد،... لكن ألم يقل سيبويه إلا هذا؟ ألم يقل:

-"وقد جاء تمفعل، وهو قليل، قالوا: تمسكن وتمدرع"؟[13].

-"ومعدّ مثله للتمعدد، لقلة تمفعُل، وأما مسكين فمن تسكّن، وقالوا: تمسكن، مثل تمدرع في المدرعة"[14]. وأضاف رايت بأن بعض هذه الصيغ دخيل في العربية مثل: بيطر، وتفلسف..وتسرول..وأما سيبويه فأشار إلى "بيطر" بعينها، ووضعها على وزن "فيْعلت"،

إضافة إلى فوعلت (حوقلت) وفعْولت (جهورت)[15].

5

4- ذكر "وليام رأيت" أن بعض الأفعال الرباعية تؤلف من مزج بحيث تمثل أبرز المقاطع في جمل شائعة كثيرة الاستخدام، ونمذج لنا بكلمات منحوتة مشهورة في العربية الجديدة التي جاءت بعد العصر الجاهلي، مثل: سبحل، بسمل، حولق، أو حوقل، حمدل،... أما الخليل فلم يتجزأ بهذا وحسب بل رسم لنا قاعدة لغوية مطردة للتعامل مع هذه الظاهرة اللغوية النادرة في العربية الجاهلية، ألم يقل الخليل رحمه الله: "إن العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما إلا أن يشتق فعل مع جمع بين كلمتين مثل "حيّ على" كقول الشاعر:

ألا رب طيفٍ بات منك معانقي إلى أن دعا داعي الفلاح فحيعـلا

يريد: "قال: حي على الفلاح" أو كما قال الآخر:

فبات خيـال طيفك لي عنيقـا إلا أن حيعل الـداعي الفلاحـا

أو كما قال الثالث:

أقول لهـا ودمـع العين جـار ألـم يَحزُنْك حَيْعَلَـةُ المنـادي؟

فهذه كلمة جمعت من "حيّ" ومن "على" وتقول منه حيعل يحيعل حيعلة، وقد أكثر من الحيعلة،..."[16].

وأما المستشرق الفرنسي "قود فروا ديمومبين" (1957) الذي كان أستاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس وشريك بلاشير في تأليف أجود كتاب في قواعد العربية الفصحى[17] فعلاوة على تبنيه ما ذكره وليام رايت، أضاف، وهذا هو الشيء الأهم حتى الآن في هذه المسألة، أن بعض الأفعال الرباعية مثل: فرقع، وخرمش، قد نشأت بتأثير ما يسميه علماء الصوتيات قانون المخالفة الصوتية Dissimilation باستخدام الأصوات المائعة (م، ل، ن، ر) أي فرقع خولفت فيها القاف الأولى، وجعلت راء بمعنى أن المخالفة الصوتية ليست إلا إبدال أحد الصوتين المتماثلين في صيغة "فعّل"،

وبذلك تكون فرقع على وزن فعلل أصلها فقّع على وزن فعّل، ومثل هذا: خرمش ← خمّش.

وفي مجال الدراسات اللغوية المقارنة دائماً للساميات، نجد المستشرق الإنجليزي " أوليري ديلاسي " وهو يتحدث عن أصوات اللغات السامية يسرد لنا بيانا صوتياً رائعاً عن المخالفة الصوتية وأثرها في نشوء كلمات رباعية بوساطة فك تضعيف الأصوات المتماثلة -أي المدغمة-، وأن هذا الفك يتم عبر استبدال أحد الصوتين المدغم في نظيره صوتاً آخر من غير جنسه، والصوت المبدل إما أن يكون صوتاً آخر من غير جنسه، والصوت المبدل إما أن يكون صوتاً من الأصوات المائعة (م، ل، ن، ر) أو صوتا من أشباه أصوات اللين (و، ي) وغالبا ما يكون الصوت الأول من الكلمة الرباعية هو المتغير: جرثم ← جثّم، ودملك ← دلّك، وأحيانا يكون الصوت الثاني هو المتغير، حذرف ← حذّف، وشرمط ← شرّط، وخرنوب ← خرّوب.

وانتهى أوليري ديلاسي إلى القول بأن هذه المخالفة لا تقتصر وحسب على الأنماط السابقة من الأفعال، بل قد تكون في المضاعف المكرر بصوتين، أو -بتعبير الخليل- في الحكاية المضاعفة كما في سلسل وكبكب، حيث صارت سنسل ← سلسل، وكوكب ← كبكب وهنا تحدث المخالفة كما يرى، في المقطع الأول، وقد تحدث في المقطع الثاني "حيث الصوت المكرر في نهاية الكلمة، كما في كلمة مرجان في العربية المستعارة عن طريق الآرامية من اليونانية"[18].

ومع تباين في العرض والطرح لإشكالية الكلمات الرباعية والخماسية في اللغة العربية بين اللغويين العرب القدماء، مثل الخليل وسيبويه وأبي زيد الأنصاري والزجاج وابن دريد والجوهري وابن فارس، وهؤلاء المستشرقين ومن نهج نهجهم، فإن هذه الطروحات الاستشراقية بقدر ما أدخلت أدوات جديدة لتفسير ظواهر ومفاهيم لغوية عربية قديمة، فإنها تؤكد في كثير من الأوجه سلامة الرؤى لطروحات اللغويات العربية القديمة، لأن ما جاء عند المستشرق الألماني

جيزينيوس، والانجليزيين وليام رايت، وأوليري ديلاسي، والفرنسي قودفروا، وسواهم من المستشرقين الذين تعرضوا لهذه الظاهرة، يوجد ما يضاهيه متداعياً لدى اللغويين العرب القدماء، بما في ذلك المخالفة الصوتية بين صوتين مكررين في الفعل المجرد الرباعي، لأن الخليل حين تحدث عن الثنائي المضعف، أي المكرر بمقطعين متجانسين، لم يستثن الصحيح فيه من المعتل، بل ذكر أنه يجوز في المضاعف من تأليف الحروف "جميع ما جاء من الصحيح والمعتل، ومن الذلق والشفوية والصُّتِّم"(19).

الإحـــالات:

1- راجع العين: 62/1-63 الخليل بن أحمد، تح: د. عبد الله درويش، ط: 1967 مطبعة العاني، بغداد.

2- نفس المرجع، ص: 58.

3- تهذيب اللغة، 69/1 الأزهري، تح: هارون بالاشتراك، ط: 1967 المؤسسة المصرية، القاهرة.

4- الصحاح: 117/1-118 الجوهر، تح: أ.أحمد عبد الغفور عطار، ط: 1979/2. دار العلم للملايين بيروت.

5- انظر الصاحبي في فقه اللغة، ص: 271 لابن فارس، تح: د.مصطفى الشويمي، ط: 1963 مؤسسة بدران، بيروت.

6- المستشرقون، ج358/2 نجيب العقيقي، ط4، دار المعارف مصر.

7- نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية، ص: 31، د.هريدي، ط: 1988، مط، المدينة المنورة، القاهرة.

8- المستشرقون، ج62/2-63 صدرت طبعة الكتاب الأولى عام 1859.

9- راجع آراء رايت في نشوء الفعل في اللغة العربية، ص: 33.

10- العين: 62/1.

11- اعتقد أنه يريد بحرفي الطلاقة القاف والعين.

12- العين: 60/1.

13- الكتاب: 286/4 سيبويه، تح، هارون، ط: 1975 الهيئة المصرية العامة للكتاب .

14- نفسه، ص308.

15- انظر المرجع السابق، ص286.

16- العين: 68/1.

17- المستشرقون، ج229/1-230.

18- نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية، ص: 36.

19- العين: 62/1، والأصوات الصتم ما ليست علّية ولا حلقية.